المجلة العربية، جامعة داكا

المجلد التاسع عشر، يونيو ٢٠١٨ م

التعامل مع اختلاف العلماء عند بديع الزمان سعيد النورسي وتطبيقه في الوضع الديني لبنغلاديش

الدكتور زبير محمد إحسان الحق*

Abstract

Bangladesh -a South Asian country - is a small and densely populated country, which is considered as one of the largest Muslim nations of the world in terms of population. Islam has entered this land in ancient times, and the country has undergone through various religious currents since old era, and has suffered from several religious problems of heresies, myths and so on. As a matter of fact religious reforms are not unfamiliar in the context of Bangladesh. However, in recent time it is witnessed some reformist trends tend to extremism; this is because most of the scholars of each sect differ negatively. Some solutions to these problems may be obtained in the thoughts of Badi'zaman Said al-Noursi - one of the greatest thinkers of the 20th century- who did his best to unite the hearts of the Muslims. The ideas left by this great giant are applicable in dealing with the differences of Bangladeshi scholars. In this article I have attempted to provide a brief description of the religious situation of Bangladesh as well as some of the Noursi's principles have also been presented which may be used in dealing with those differences.

Keywords: *Bangladesh, Religious Status, Extremism, Noursi's Ideas, Dealing with the Differences.*

* أستاذ مشارك، قسم العربية، جامعة داكا

المقدمة

كان الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي يعد من كبار علماء الإصلاح الديني والاجتماعي للقرن العشرين، ليس في موطنه تركيا فقط بل في العالم كله. فهو في تفسيره الفذ "رسائل النور" عالج كثيرا من القضايا الدينية والمشاكل الاجتماعية التي كانت الأوط ان الإسلامية تعاني منها آنذاك. ومن القضايا التي أقبل عليها الأستاذ النورسي الاختلاف بين علماء الدين ومناهج حلها. ولا تزال بعض هذه المشاكل سائدة في العالم الإسلامي. على سبيل المثال نحن أبناء بنغلاديش المسلمون نواجه الآن اختلافا شديدا بين علمائها في أمور تافهة. ونحن نرى بأن مناهج النورسي للتعامل مع اختلاف العلماء صالحة للتطبيق في الأوضاع البنغلاديشية. ونقسم المقال إلى قسمين؛ ففي القسم الأول نعرض وصفا موجزا لبنغلاديش وللوضع الديني السائد فيها، وفي القسم الثاني نتناول أفكار بديع الزمان النورسي في توحيد القلوب لنتدارس إمكان تطبيقها في أوضاع بنغلاديش.

بنغلاديش

إن بنغلاديش بقعة قديمة جدا، يرجع تاريخ استيطان البشر فيها إلى عهد قديم. وفي العصور القديمة حُكمت البنغال (اسم قديم لبنغلاديش) بعدد من الأسر الحاكمة البوذية والهندوس. وهناك براهن قطعية تدل بأن العلاقات التجارية بين العرب المسلمة والبنغال بدأتْ في القرن السابع الميلادي. فأول بذور الإسلام غرست في هذه البقعة بواسطة التجار العرب ومحاولاتهم عن طريق التبادل التجاري واستيطان بعض منهم في هذه البلاد. ثم جاء موكب الصوفية عن طريق البر، فبدأ أهل البنغال يدخلون في الإسلام بمحاولاتهم وجهودهم. وفي بداية القرن الثالث عشر الميلادي (١٢٠٤ م) خضعت البنغال لسيطرة المسلمين، وذلك بغلبة القائد التركي اختيار الدين محمد بن بختيار خلجي (١٢٠٤–١٢٠٦). ثم إن حكمهم استمر في البنغال لمدة طالت ٦٥٠ سنة. (Ali M. 1985)

ومع ظهور الأوربيين في المحيط الهندي وقدوم الإنجليز في بر الهند أخذ حكم المسلمين في البنغال يضعف وينكمش، حتى سقطت البقعة بيد الإنجليز سنة ١٧٥٧م، وكانت هي الولاية الأولى التي استولتْ عليها الإنجليز في شبه القارة الهندية. وبمرور الأيام شمل الحكم البريطاني جميع الهند. وانتهى حكمهم بعد ١٩٠ سنة في ١٩٤٧ م حين غادروا شبه القارة بعد تقسيمها إلى قسمين: الهند وباكستان، ومتعت البنغال نفس المصير فانقسمت إلى البنغال الغربية التي انضمت إلى الهند والبنغال الشرقية التي انضمت إلى باكستان التي كان معظم سكانها مسلمين. ولم يدُمْ انضمام البنغال الشرقية مع باكستان إذْ حصلت الأولى على استقلالها باسم بنغلاديش بعد ٢٣ سنة في ١٩٧١م إثر حرب دامت تسعة أشهر. وأما البنغال الغربية فتستمر تبقي كولاية للهند. ومساحة بنغلاديش ١٤٧٥٧٠ كيلومتر مربع وعدد سكانها أكثر من ١٦٠ مليونا. وهي محاطة بالهند من ثلاث جهات، من الغرب والشمال والشرق، وفي جنوبها خليج البنغال.(Chowdhury, 2012)

الحالة الدينية في بنغلاديش

إن بنغلاديش هي كبرى الدولة المسلمة الثالثة —بعد إندونيسيا والباكستان– من حيث عدد السكان، وتبلغ نسبة عدد السكان المسلمين ٩٠ في المائة. ثم معظمهم ينتمون إلى المذهب السني، وعدد المسلمين الشيعة قليل جدا. وزدْ على ذلك إن جميع المسلمين تقريبا هم الأحناف. فهناك عدد قليل من أهل الحديث منتشرون في بعض المناطق. ومن الجهة العرقيةِ، أغلب السكان في هذه البلاد البنغاليون. فكانت من الواجب أن تكون بنغلاديش دولة مثالية للوحدة الوطنية. ولكن للأسف! الواقع مختلف، وهذه دولة منقسمة من عمق. ومما لا شك فيه أن المبرر الأكبر لهذه الأزمة والتفرقة هي السياسة التي هي خارج نطاق بحثنا اليوم. ونحن نتكلم عن اختلاف العلماء البنغلاديشيين وهذا أيضا من الأسباب التي ضعّفتْ الشعب.

أضواء على اختلاف علماء بنغلاديش

إن قضية اختلاف العلماء في بنغلاديش أمر يرجع تاريخه إلى عهد بعيد؛ وبما أن معظم سكانها المسلمين كانوا ينتمون إلى المذهب الحنفي لمْ يكن هناك اختلاف شديد ملحوظ بين علمائها في أصول الدين من العقائد والعبادات، بل في أمور فرعية صغيرة أمثال احتفال مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام فيه وما إليهما. ومن البديهي أن هذه أمور لا تتعلق بأصول العقائد ولا بفروع العبادة. نعم، كانت هناك طائفة قليلة من أهل الحديث كانوا يمارسون الشعائر الدينية حسب مذهبهم في أمن وسلام بدون نزاع مذكور مع الأغلبية الحنفية.

وقد تغيرتْ الأوضاع منذ عشر أو خمس عشرة سنة. فقد بدأ بعض العلماء دعوة إصلاحية بنمط جديد. وهذه الطائفة التي تشتمل على بعض (الخريجين من مختلف الجامعات في الشرق الأوسط والمتأثرين بالمذهب السائد فيه) العائدين من الشرق الأوسط — من السعودية خاصة– وعلى طائفة من أهل الحديث المحليين تدعو إلى إصلاح العقائد والأعمال بطريق غير مسبوق. ونذكر مرة ثانية بأن أهل الحديث في بنغلاديش يعيشون في أمن وسلام منذ أكثر من مائة عام، وما حدث شيء من التوترات في ذلك العهد. فهذه الدعوة الجديدة تدعو إلى نبذ البدعة والشرك كجزء من مشروعها الإصلاحي. ومن الجدير بالذكر أن الإصلاح الديني ليس بجديد في هذه البقعة. فقد شهدت البلاد حركات متعددة لإصلاح الدين؛ ومن أهمها تلك التي قام بها حاجي شريعة الله وأتباعه في البنغال الشرقية في العهد البريطاني. وتلك الحركة ذات النزعة الصفائية نالتْ حظا ملحوظا من النجاح لأنها أخذت النزعات المحلية المباحة في الاعتبار. ولمْ تقف محاولات الإصلاح الديني بعد حاجي شريعة الله، بل استمرتْ جماعة أو انفرادا تهدف نبذ البدعة والشرك وتنمية الحياة الأخلاقية للناس.

وفي هذه الخلفية لاحظنا محاولة جديدة للإصلاح يقوم بها بعض العلماء العائدين من البلدان العربية ومعهم طائفة من علماء أهل الحديث والهدف الملفوظ لهذه الدعوة هو تصحيح العقيدة والعمل؛ إلا أن أسلوب هذه الموجة مختلفة كل الاختلاف عما سبق من المحاولات الإصلاحية الدينية. والمراقب الدقيق في طريقة عملهم يرى منهجهم ليس جامعا وشاملا بل استثنائيا منفردا، ودعوتهم ليست محببة بل مهددة. ففي ميدان العقيدة هم يدعون إلى أخذ عقيدة السلف ونبذ البدعة والشرك، ومما لا شك فيه أن هذا أمر محمود ومرغوب. وكما أسلفنا أن بنغلاديش عانت من مشكلة البدعة والشرك والخرافات، وعلمائها ما داموا نشطاء في الأعمال الدعوية لمحو هذه الخرافات. فكان من المأمول أن يحصل للمحاولة الدعوية الرائجة سابقا أسلوب جديد بدعم من الدعاة السلفية. ولكن ما حدث ذلك. ولعل السبب يرجع إلى التشدد الذي يبديه إخواننا السلفيون وهم يزمتون في كل جزئيات المسائل، وربما يدمجون في العقيدة ما ليس من إطارها.

ونشأتْ المشكلة الكبري في ميدان الفقه، حيث واجه فيه الدعاة السلفيون مخالفة شديدة من بعض العلماء الأحناف. ولا يستطيع الطرفان إنكار المسئولية إلا أن البداية نشأت من السلفيين. وهذه المباينة ذكّرتْنا العصور الخالية التي كان فيها الاختلاف بين المذاهب في أشد صورته حسب ما نجد بيانه في بعض كتب الفقه. إلا أن الأمة اجتازتْ مراحل الاختلافات الفقهية واتفقتْ على أن المذاهب الأربعة كلها معتبرة، وعلى مرور الزمان انخفضت شدة الخلاف. وكما أسلفنا أن الأغلبية من مسلمي بنغلاديش هم أتباع المذهب الحنفي وهذا المذهب من المذاهب الأربعة المعتبرة بإجماع الأمة. وسبب النزاع الراهن في بنغلاديش هو أن السلفيين حاولوا تهديم البناء الحنفي بدعوتهم إلى العمل بالأحاديث الصحيحة وهم بأنفسهم حددوا معيار الأحاديث الصحيحة. وعلى هذا أشاروا إلى أن أعمال المسلمين البنغال غير صحيحة أو مرجوحة لكونها تعتمد على الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة. وللقيام بذلك هم نسبوا بعض الأحاديث الحسنة إلى الضعف وبعض

الأحاديث الضعيفة إلى الوضع (بن محسن، ٢٠١٣). ومن الجدير بالذكر أن معظم هذه الاختلافات تدور حول السنن والمستحبات أمثال رفع اليدين أو الجهر بالتأمين أو كوائف الجلوس في القعدة الأخيرة أو عدد التكبيرات في صلاة العيدين. ومن المعلوم أن الاختلاف بين العلماء في هذه الأمور اليسيرة عمره أكثر من ألف سنة، فلا معنى على الإطلاق لتفريق الأمة بإنشاء هذه الاختلافات من جديد.

وفي بداية الأمر لم يكن علماء بنغلاديش (الأحناف) نشطاء. فلما رأو أن الدعوة السلفية تحدث في أذهان العوام شعورا بأن الأعمال والممارسة الدينية التي كانت مستمرة في هذه البقعة خاطئة يجب تصحيحها نزل بعض منهم في الميدان الجدلي للقيام بدورهم، وأقاموا الندوات الفقهية في مختلف أنحاء البلاد رافعين الراية الحنفية، نقدوا فيها السلفيين نقدا عنيفا حتى نسبوا بعض كبار علمائهم إلى الجهل والحماقة (عبد المتين، ٢٠١٥). ووصل هذا الجدل المتبادل من الجانبين إلى هذا الحد بأن الفريق الأول أسس مساجد خاصة باسم "مسجد أهل الديث" أو "مسجد العقيدة الصحيحة" وبالعكس من هذا كُتِبتْ في بعض المساجد العبارة التالية: "يمنع الجهر بالتأمين في هذا المسجد،" ومما لا شك فيه أن هذه أمور متهورة في الغاية.

هذا، ولهذا النوع الجديد من النشاط الدعوي بعض إيجابيات وعدة سلبيات نشير إليها بإيجاز.

إيجابيات

أ) اهتمام العلماء بدراسة الحديث النبوي الشريف

ومع أن منهج التعليم الديني في بنغلاديش كان يشتمل على دراسة علوم الحديث إلا أن الاهتمام الأكبر كان بالفقه والفتوى إذ أنه يتبع مسلك الحنفية، ومعلوم لدى الجميع بأن الناس في الفقه عيال أبي حنيفة رحمه الله. ولما أحس العلماء بأن الدعوة السلفية ركزتْ على الأحاديث الصحيحة التجؤوا إلى دراسة علوم الحديث من جديد فبدأوا يبحثون عن الأسس الصحيحة للفقه الحنفي وألفوا عدة كتب في الفقة مدللة ومستندة إلى السنة الصحيحة.

ب) إقبال العامة على ممارسة القرآن والحديث

ومن الإيجابيات للدعوة السلفية أنه زاد وكثر شوق العامة إلى ممارسة القرآن والحديث؛ لأنهم الآن يريدون أن يعلموا المستندات للشعائر الدينية التي يقيمونها يوميا. ونشأت هذه الرغبة في قلوب الناس بدعوة إخواننا السلفيين؛ لأنهم كثيرا ما شجعوا الناس على معرفة الدلائل والتمييز بين سقيمها وصحيحها.

سلبيات

(أ) إضعاف قوة الإصلاح ومحاولات قمع الشرك والبدعة والخرافات

هذه الاختلافات غير المرغوب فيها وغير الضرورية الرائجة في بنغلاديش حاليا أضعفتْ قوة الإصلاح الديني وبالتالي أصبحت المحاولات لقمع الشرك والبدع والخرافات ضعيفة ومنكمشة. لأن العلماء الذين عليهم مسئولية الدعوة والإصلاح هم منقسمون في مائة جزء ويبذلون معظم جهودهم ضد بعضها البعض.

(ب) تفريق الشعب

وبما أن الأغلبية من سكان بنغلاديش هم المسلمون ثم الغالبية العظمى لأهل السنة وللمذهب الحنفي فإنه كان هناك احتمال قوي بأن يكون الشعب متحدا –على الأقل– من المنظور الديني؛ ولكن لم يحدث ذلك. والسبب كما هو معلوم يرجع بعضه إلى اختلاف علماء الدين. وقد أشرنا فيما سبق بأن هذه الاختلافات في معظم الحالات ما كانت محتمة.

(جـ) انغماس الناس في الجدال الديني

ومن الآثار السلبية للجدال الديني الحديث أن عددا هائلا من العامة – بهدف دعم شيوخهم– أصبحوا منغمسين في الجدال الديني —ولو بصورة غير مباشرة وغير رسمية– وهم بطبيعة الحال لا يعرفون آداب المناظرة كما لا يدركون الأهداف المنشودة لها. وبالتالي أصبحت الاختلافات الدينية تتجاوز حدودها وتعم عددا لا يتجاهل به من الشعب فالعوام

تتناقش في المساجد والطرق وفي يوتيوب والفيسبوك حول أمور دينية أمثال رفع اليدين، والجهر بالتأمين وعدد تكبيرات العيدين وما إلى ذلك. ومما لا شك فيه بأن الجدال في هذه الأمور الفرعية غير ضروري على الإطلاق ولا طائل تحته، وأن العامة ليسوا من أهله.

(د) انخفاض الأنشطة الدنيوية

إذا اغمست الفئة الكبيرة من قومٍ في الجدال الديني انخفضت أنشطته الدنيوية، هذا هو الذي اطلعنا عليه من التاريخ. وما يطلب الإسلام من أهله الغطس في السجال وإنما يستدعي منهم الممارسة الكاملة والدخول الشامل في الدين. وأما التفقه في الدين فلا يلزمه الله تعالى على كل فرد من أفراد الأمة وإنما أوجبه على فئة خاصة منهم: "وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (التوبة، ١٢٢)". ونحن نعترف ونقر بأنه ليس عندنا إحصائيات دقيقة لمدى ما أثرتْ المجادلات الدينية في الأنشطة الدينية، إلا أن الجو الذي نمرّه من طبيعته تدهور النشاطات الدنيوية؛ إذ عدد لا بأس به من الأطباء والمهندسين ورجال المهن الأخرى يغوصون في الجدال الديني تاركين أعمالهم وواجباتهم نحو الوطن والشعب.

(ه) تحقير العلماء

ومن النتائج السيئة لمثل هذا الجدال المرير الذي لا تحتفظ فيه آداب المناظرة تحقير العلماء. ومما لا شك فيه أن هذا النوع من الأعمال الشنيعة حدث من المؤيدين العُمي لكلا الجانبين حتى رأينا أن بعضا من الغلاة تجرؤوا على أن ينسبوا صفة الجهالة والحماقة إلى المحدث الكبير الألباني رحمه الله وحدث العكسُ من الفريق الآخر.

وعلى العكس من الفريقين المتطرفين نلاحظ في بنغلاديش علماء كثيرين — من كلا النزعتين من الأحناف ومن أهل الحديث— لا يميلون إلى التطرف والتعصب، إلا أن الأغلبية منهم ساكتون صامتون والبعض القليل منهم نشطاء وهم يرفعون راية الوسطية

ويدعون إلى الالتزام بمزايا الأمة الوسط مثل ما قدم الأستاذ الدكتور عبد الله جهانغير في حقل الدعوة والإرشاد، ودعوته تشتمل على الجوانب الإيجابية من كل الأطراف؛ إلا أنهم في حاجة ماسة إلى إيجاد الوسائل والأدوية الناجحة التي من شأنها مساعدتهم لتحقيق الوحدة بين مسلمي بلادهم. وقد بذل العديد من أهل الفكر والصلاح في التاريخ الاسلامي تحقيق هذه الغاية الجليلة، إلاّ أنّ المسلك الذي سلكه الأستاذ بديع الزمان النورسي — ولو كان كردي الأصل وتركي الموطن وشافعي المذهب– نهجٌ يتصف بمنتهى الدقّة والحيادية، المؤيّدة بالأدلة النقلية والعقلية، فنحن نرى أنه من الأليق أن نقدم بعضا من الوسائل التي عالج بها بديع الزمان النورسي مشكلة اختلاف العلماء والمذاهب علّها ترسم لعلمائنا مسارهم في مقاومتهم للتطرف والمغالاة.

نبذة من حياة الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي

وقبل أن نخوض في صلب الموضوع نحس ضرورة الإشارة إلى الحياة الوجيزة للأستاذ بديع الزمان النورسي، فقد ولد عام ١٢٩٤ للهجرة النبوية، الموافق ١٨٧٦ للعام الميلادي في قرية "نورس" التابعة لمحافظة هيزان لولاية "بتليس" شرقي تركي، وانتمى إلى أسرة كردية الأصل. واسم والده مرزا بن علي بن خضر من عشيرة اسباريت. وأما والدته فاسمها نورية بنت ملا طاهر من قرية "بالك" وهي من عشيرة خاكيف والعشيرتان من عشائر قبائل الهكارية في تركيا.

وفي طفولته التحق سعيد النورسي بعدة من الكتاتيب والمرافق التعليمية المنتشرة في تلك النواحي من حول قريته نورس. وكان يستوعب كل ما يقدم له من علم، وظل ينتقل من مركز إلى مركز ومن عالم إلى عالم آخر حتى حفِظ ما يقرب من تسعين كتابا من أمهات الكتب. وتهيأ بعد ذلك وبفضل المحصول العلمي الذي اكتسبه في طفولته المبكرة تلك أن يجلس إلى المناظرة ومناقشة العلماء وانعقدت له عدة مجالس تناظر فيها مع أبرز الشيوخ والعلماء في تلك المناطق وظهر عليهم جميعا. فانتشرت شهرته في الآفاق.

وفي سنة ١٣١٤ هـ الموافق ١٨٩٧م ذهب إلى مدينة وان، وانكب فيها بعمق على دراسة كتب الرياضيات وعلم الفلك والكيمياء والفيزياء والجيولوجيا والفلسفة والتاريخ حتى تعمق

فيها إلى درجة التأليف في بعضها فسمى بـ"بديع الزمان" اعترافا من أهل العلم بذكائه الحاد وعلمه الغزير واطلاعه الواسع.

وفي أثناء ذلك نشر في الصحف بأن وزير المستعمرات البريطاني غلادستون قد صرح في مجلس العموم البريطاني بأن قطع الصلة بين المسلمين والقرآن الكريم هو المناص الوحيد للمستعمرين في سبيل استمرار حكمهم على المسلمين. فزلزل هذا الخبر كيان البديع النورسي فأعلن عزمه للقيام بتقديم البراهين الساطعة على أن القرآن شمس معنوية لا يخبو ولا يمكن إطفاء نورها. فشد الرحال إلى إستانبول عام ١٣٢٥ هـ الموافق عام ١٩٠٧ م وقدم مشروعا إلى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني لإنشاء جامعة إسلامية في شرقي الأناضول أطلق عليها اسم "المدرسة الزهراء" على غرار جامع الأزهر، تنهض بمهمة نشر حقائق الإسلام وتدمج فيها الدراسة الدينية مع العلوم الكونية الحديثة.

وفي سنة ١٣٢٩هـ الموافق ١٩١١م سافر إلى دمشق وعلى طلب من علمائها ورجالاتها ألقى في الجامع الأموي هناك خطبة تاريخية أمام آلاف من المصلين وهي المعروفة بالخطبة الشامية. ولقد كانت تلك الخطبة برنامجا سياسيا واجتماعيا متكاملا للأمة الإسلامية.

وكان النورسي من المجاهدين الوطنيين الذين خاضوا غمار الحرب العالمية الأولى دفاعا عن حمى الوطن وجُرح في المعارك مع الروس وأسر في عام ١٣٣٤هـ وبعد أن قضى أكثر من سنتين في السجن استطاع البديع النورسي الهرب أثناء ضوضاء الثورة البلشفية فعاد إلى الوطن عام ١٣٣٦هـ الموافق ١٩١٨م وحظي رجوعه هذا بالاستقبال الباهر من جميع أوساط المواطنين ومنح وسام الحرب. وكلفته الدولة بتسلم بعض الوظائف، فرفضها إلا ما عينته له القيادة العسكرية من عضوية في "دار الحكمة الإسلامية" التي كانت لا توجه إلا لكبار العلماء، فنشر في هذه الفترة أكثر مؤلفاته باللغة العربية، منها: تفسيره القيم الفذ "إشارات الإعجار في مظان الإيجاز" و "المثنوي العربي النوري."

وبعد دخول الغزاة إلى استانبول في ١٣ نوفمبر عام ١٩١٩م أحس سعيد النورسي أن طعنة كبيرة وجهت إلى العالم الإسلامي فكان حتماً أن يقف في طليعة من يتصدى للقهر والهزيمة فسارع إلى تحرير كتيب "الخطوات الست" حرك به همة مواطنيه ووضع تصوره لرفع المهانة وإزالة عوامل القنوط التي ألحقتها الهزيمة بالدولة العثمانية والمسلمين عامة.

وفي هذه الفترة – أي منذ عام ١٩٢٢م– وضعت قوانين واتخذت القرارات لقلع الإسلام من جذوره في تركيا وإخماد جذوة الإيمان في قلب الأمة التي رفعت راية الإسلام طيلة ستة قرون من الزمن. فأُلغيت السلطنة العثمانية في الأول من نوفمبر عام ١٩٢٢م وأعقبه إلغاء الخلافة الإسلامية في ٣ مارس عام ١٩٢٤م. وقام الشيخ سعيد بيران البالوي النقشبندي (١٩٢٥/٢/١٣) بالثورة ضد السلطة آنذاك وطلب قائد الثورة من بديع الزمان أستغلال نفوذه لإمداد الثورة إلا أنه رفض معلنا بأنه لا يستطيع أن يستلّ سيفه على المسلمين.

ومع موفقه الغير الانحيازي فإنه لم ينج من شرارة الفتن والاضطرابات فنفاه السلطة العلمانية مع الكثيرين إلى بوردو في عام ١٩٢٦م ثم نفي وحده إلى ناحية نائية وهي بارلا جنوب غربي الأناضول. وفي هذه الخلوة صرف كل همه وقته في تدبر معاني القرآن الكريم وفي هذه الأثناء تولدت من صميم قلبه معاني جليلة نابعة من فيوضات القرآن الكريم ما جمعت فيما بعد ونشرت حاملة عنوان "رسائل النور." وهكذا استمر النورسي على تأليف رسائل النور حتى عام ١٩٥٠م وهو ينقل من سجن إلى آخر ومن محكمة إلى أخرى. وهكذا طوال ربع قرن من الزمن لم يتوقف خلاله من التأليف والتبليغ حتى أصبحتْ أكثر من ١٣٠ رسالة جمعت تحت عنوان كليات رسائل النور ولمْ يتسير لها الطبع إلا بعد عام ١٩٥٤م وكان النورسي يشرف بنفسه على الطبع حتى أكمل طبع الرسائل جميعها. وكانت تدور مواضيعها حول تفسير آيات القرآن بأسلوب علمي عصري فهو من رواد التفسير العلمي للقرآن.

وبعد قضى حياة حافلة موقوفة كلها للقرآن والدين والمسلمين توفي سعيد النورسي في الخامس والعشرين من رمضان المبارك عام ١٣٧٩هـ الموافق ١٩٦٠م وتم دفنه في مدينة أورفة. ولكن السلطات العسكرية الحاكمة لتركيا لم تدع رفاته تسكن في سلام إذ قاموا بعد أربعة أشهر من وفاته بهدم قبره ونقل رفاته بالطائرة إلى جهة مجهولة وأصبح قبره مجهولا حتى الآن لا يعرفه الناس.

وترك النورسي رحمه الله تراثا خالدا جمع ونشر في تسع مجلدات وقد ترجمها إلى العربية الكاتب الكبير إحسان قاسم الصالحي وعنوان المجلدات العربية هي: (١) الكلمات، (٢) المكتوبات، (٣) اللمعات، (٤) الشعاعات، (٥) الكليات، (٦) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، (٧) المثنوي العربي النوري، (٨) الملاحق و(٩) السيرة الذاتية. (بديع الومان سعيد النورسي) ar.wikipedia.org/wiki/

التعامل مع اختلاف العلماء عند بديع الزمان سعيد النورسي

إن أفكار بديع الزمان سعيد النورسي في الوحدة نافذة واسعة المصراع تخص توحيد الكلمة والصف والقلوب بين المخلوقات عموما وأهل التكليف منهم خصوصا. وهذه الأفكار مبثوثة في أجزاء رسائل النور وقد ركزنا على مباحث فقهية لنستخرج منها آراء الأستاذ النورسي في التعامل مع اختلاف علماء الدين.

(أ) عناصر الاتحاد والاتفاق كثيرة جدا

إن بديع الزمان سعيد النورسي لإقامة أساس الاتفاق والتوحيد يذكرنا بأن عناصر الاتفاق كثيرة لا تحصى، فأنى يؤفك المؤمن تاركا هذه العناصر؟ وفي هذه المعاني يقول رحمه الله:

> إن خالقكما واحد، مالككما واحد، معبودكما واحد، رازقكما واحد... وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ الألف. ثم، إنّ نبيكما واحد، دينكما واحد، قبلتكما واحدة، وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ المائة. ثم، إنّكما تعيشان معاً في قرية واحدة، تحت ظل دولة واحدة، في بلاد واحدة... وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ العشرة. فلئن كان هناك إلى هذا القدر من الروابط التي تستدعي الوحدة والتوحيد والوفاق والاتفاق والمحبة والأخوة، ولها من القوة المعنوية ما يربط أجزاء الكون الهائلة، فما أظلم من يعرض عنها جميعاً ويفضل عليها أسباباً واهية أوهن من بيت العنكبوت، تلك التي تولد الشقاق والنفاق والحقد والعداء. فيوغر صدره عداءً وغلاً حقيقياً مع أخيه المؤمن! أليس هذا إهانة بتلك الروابط التي توحد؟ واستخفافاً بتلك الأسباب التي توجب المحبة؟ واعتسافاً لتلك العلاقات التي تفرض الأخوة؟ فإن لم يكن قلبك ميتاً ولم تنطفئ بعد جذوة عقلك، فستدرك هذا جيد. (النورسي، ٢٠١١ ب: ٣٤١)

(ب) النظر إلى اختلاف الفقهاء بأن الحق متعدد مجازا

هذه من القواعد العامة الفقهية بأن الحق واحد في موضع الخلاف، وربما تنشئ هذه القاعدة التعصب والغيرة في نفوس أتباع إمام من الأئمة، فالنورسي بديع الزمان — رحمه الله– لا ينكرها ولكن يفسرها ويقيم علاقة بينها وبين العوامل الخارجية ما تؤدي في الآخير إلى القول بتعدد القول مجازا.

وضّح النورسي هذا الأمر بمثال توضيحي، فقال: "إنْ قلت: إنّ الحق واحد، فكيف يمكن أن تكون الأحكام المختلفة للمذاهب الأربعة والاثني عشر حقاً؟ الجواب: يأخذ الماء أحكاماً خمسة مختلفة حسب أذواق المرضى المختلفة وحالاتهم: فهو دواء لمريض على حسب مزاجه، أي: تناوله واجب عليه طباً. وقد يسبب ضرراً لمريض آخر فهو كالسم له، أي: يحرم عليه طباً، وقد يولّد ضرراً أقل لمريض آخر، فهو إذن مكروه له طباً، وقد يكون نافعاً لآخر من دون أن يضره، فيسنّ له طباً، وقد لا يضر آخر ولا ينفعه، فهو له مباح طباً فليهنأ بشربه". (النورسي، ٢٠١١ أ : ٥٦٠)

وأضاف النورسي قائلا: "إن الحق قد تعدد هنا، فالأقسام الخمسة كلها حق، فهل لك أن تقول: إن الماء علاج لا غير، أو واجب فحسب، وليس له حكم آخر؟. وهكذا –بمثل ما سبق– تتغير الأحكام الإلهية بسَوْقٍ من الحكمة الإلهية وحسب التابعين لها. فهي تتبدل حقاً، وتبقى حقاً، ويكون كل حكم منها حقاً، ويصبح مصلحة." (النورسي، ٢٠١١ أ : ٥٦٩، ٥٧٠)

(جـ) النص دونه الاجتهاد في التشريع

من أهم المشاكل الدينية تعصبُ بعض الأتباع لمذاهبهم وجعل اجتهاد إمامهم مثابة نص شرعي مع أن الاجتهاد دون النص في التشريع. والغالب في الاجتهاد الفقهي أنْ يكون في المسائل الجزئية الفرعية، وتتعلّق بالمسائل التي لم يرو في شأنها نص، أو ورد نص ولكنه ظني في الثبوت أو الدَّلالة أو فيهما. لهذا استثنيتْ من مجال الاجتهاد الضروريات الدينية لقطعيتها من جهة الثبوت والدَّلالة. والاجتهاد مهما كان، لا يمكن أن يرد في مورد النصّ، لهذا ورد في القاعدة المشهورة: "لا مساغ للاجتهاد في مورد النص."

ويقول النورسي في حق المجتهد: "... لا يستطيع أن يشرّع ويدعو الأمة إلى مفهومه. إذ فهمه يُعدّ من فقه الشريعة، ولكن ليس الشريعة نفسها، لذا ربما يكون الإنسان مجتهدا ولكن لا يمكن أن يكون مشرعا (النورسي، ٢٠١١ أ : ٨٣٢)." ذلك أنّ الإنسان عندما يعتبر نفسه مُشرِّعاً، ربما لا يستطيع أن يفرق بين الضروريات الدينية المتحتمة، وبين الجزئيات الفرعية الخلافية، وبالتالي تظهر منه تخطئة غيره وبروز حبّ الجاه والذات والأنانية الخطيرة، إلى حدّ إخراجه عن حدود الدين والشريعة. فالواجب على كل مسلم أن يتوازن في تقدير كل من النص (القرآن والحديث) والاجتهاد وينزل كلا منهما مكانهما حتى لا يهين النص ولا يقدس الاجتهاد.

(د) الحفاظ على هيمنة القرآن والسنة وهما غايتان والرأي الفقهي ليس غاية بل وسيلة للوصول إلى الغاية

وما دام القرآن الكريم وصحيح السنة الشريفة هما مصدرا الضرورات الدينية المؤسسة لروح الإسلام والوحدة الإسلامية الإيمانية، وجّه الأستاذ الناس وذكّرهم بالحاجة إلى القرآن مباشرة، قال الأستاذ (رحمه الله): "... فلو وجهت حاجات المسلمين الدينية كافة شطر القرآن الكريم مباشرة، لنال ذلك الكتاب المبين من الرغبة والتوجه –الناشئة من الحاجة إليه– أضعاف أضعاف ما هو مشتت الآن من الرغبات نحو الألوف من الكتب، بل لكان القرآن الكريم مهيمنا هيمنة واضحة على النفوس، ولكانت أوامره الجليلة مطبقة منفذة كلياً. وما كان يظل كتاباً مباركاً يُتبرك بتلاوته فحسب (النورسي، ٢٠١١ ج : ٣٢٦)."

ويبذل النورسي جهوده لأجل الحفاظ على هيمنة القرآن والسنة على قلوب وعقول العباد وأفعالهم وأقوالهم وأحوالهم، بل كان يرى أنّ سعادة الأمة ونجاحها في الدنيا وفلاحها في الآخرة مبنية على هيمنة الكتاب والسنة على القلوب والعقول والأبدان، ذلك أنّ هذه الهيمنة هي نقطة تآزرها وتعاونها وجمعها، ولهذا ليست الآراء الفقهية ومذاهبها إلاّ وسائل تكشف قدسية هذه النصوص، يقرر النورسي هذه المعاني الراقية والأصيلة بقوله: "إنّ الذي يسوق جمهور الناس إلى الاتباع وامتثال الأوامر، هو ما يتحلّى به المصدر من قدسية، هذه القدسية هي التي تدفع جمهور الناس إلى الانقياد، أكثر من قوة البرهان

ومتانة الحجة، فينبغي إذن أن تكون الكتب الفقهية بمثابة وسائل شفافة –كالزجاج– لعرض قدسية القرآن الكريم، وليس حجاباً دونه، أو بديلاً عنه (النورسي، ٢٠١١ ج : ٣٢٧)."

ومع اهتمامه البالغ بالقرآن والسنة وهيمنتهما فإن الأستاذ النورسي لمْ يكن مع من يرى الانسلاخ من المذاهب الفقهية، بل رد إدعاء الخروج من المذاهب على الذين نسبوا الاجتهاد إلى أنفسهم وادعوا بلوغ مكانة المجتهدين، وهم في الحقيقة من أهل الضلال، إذ يقول:

> فهم أناس مغرورون جداً، ومعجبون بأنفسهم أيّما إعجاب، يريدون أن يبثوا انسلاخهم من المذاهب الفقهية تحت ادعاء أنهم في مستوى المجتهدين العظام، بل يحاولون إمرار إلحادهم وانسلاخهم من الدين بادعاء أنهم في مستوى الصحب الكرام، فهؤلاء الضالون قد وقعوا: أولاً: في هاوية السفاهة حتى غدوا معتادين عليها، ولا يستطيعون أن يتركوا ما اعتادوه، وينهضوا بتكاليف الشرع التي تردعهم عن السفاهة. فترى أحدهم يبرر نفسه قائلاً: إن هذه المسائل إنما هي مسائل اجتهادية، والمذاهب الفقهية متباينة في أمثال هذه المسائل، وهم رجال قد اجتهدوا ونحن أيضاً رجال أمثالهم، يمكننا أن نجتهد مثلهم، فلربما يخطؤون مثلنا، لذا نؤدي العبادات بالشكل الذي يروق لنا نحن، أي: لسنا مضطرين إلى اتباعهم!! فهؤلاء التعساء يحلُّون ربقة المذاهب عن أنفسهم بهذه الدسيسة الشيطانية. فما أوهاها من دسيسة وما أرخصها من تبرير! (النورسي، ٢٠١١ أ : ٥٧٤).

(هـ) توحيد القلوب مع بقاء الاختلاف والاستمداد من الاختلاف الفقهي للوحدة

وكثيرا ما غالط الناس في اختلاف العلماء والفقهاء واستخدموها لتفريق الكلمة والقلوب. وهذا من إبداعات الأستاذ البديع أنه استمد لتوحيد القلوب من الاختلاف: أمر بديع في الغاية. ومن المعلوم أن تعدد الأنظار أمر سائغ في الشريعة الإسلامية إذا كان مطابقا للقواعد والأسس العلمية المعتبرة. لهذا ما حاول الأستاذ توحيد المذاهب الفقهية والآراء المتباينة، لأنها بنظر موضوعي من الوقائع التي لا ينكرها أحد، وليس باستطاعة كل الناس التفكير وفق طريقة واحدة، وعلاوة على ذلك فإن الظروف متباينة والمعطيات

الزمانية والمكانية متغيرة، ومحاولة محو الاختلاف ربما تزيده. يسجّل الأستاذ هذا التحليل بقوله: "...لعجز البشرية من أن تصل جميعاً الى مستوى واحد، وعدم تمكنها من السير على نمط واحد في حياتها الاجتماعية، فقد تعددت المذاهب الفقهية في الفروع. فلو تمكنت البشرية –بأكثريتها المطلقة– أن تحيا حياة اجتماعية واحدة، وأصبحت في مستوى واحد، فحينئذ يمكن أن تتوحد المذاهب، ولكن مثلما لا تسمح أحوال العالم وطبائع الناس، لبلوغ تلك الحالة، فإنّ المذاهب كذلك لا تكون واحدة... (النورسي، ٢٠١١ أ : ٥٦٠)".

فإذا كان الاختلاف من طبائع البشرية إذاً لا بدّ من الوقوف عند نقطة يمكن من أثنائها الحد من النتائج السلبية للاختلاف، والاجتناب عما يمكن أنْ يدنس صفو الأخوة وروح المساعدة والتعاون بين متبعي مختلف الآراء والمذاهب المختلفة، وقد وُفِّق الأستاذ النورسي في خدمة هذا المقصد بالتوظيف الإيجابي للاختلاف بدلا من استعماله استخداما سلبياً، فجعل (رحمه الله) من الاختلاف الفقهي منطلقاً لتوحيد الفكر والقلب، وتأسيساً لقبول الرأي المخالف، فكان التعرض بهذه المسائل مدخلاً لتقوية العلاقات الأخوية بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم، سنقتصر ههنا على ذكر نموذج واحد فقط من رسائل النور لنرى كيف وفّق الأستاذ بين الآراء الفقهية المتباينة ليستخدمها في توحيد القلوب.

إن الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي لما تكلم عن تعدد المذاهب في خاتمة الكلمة السابعة والعشرين من كتاب الكلمات أورد — على سبيل المثال– مسألتين اختلف فيهما الإمامان أبو حنيفة والشافعي رحمهما الله تبارك وتعالى و تعرض لتوضيحهما توضيحا بارعا ونحن نود أن نستخلص إحدى المسألتين حسب طريقة الأستاذ لنرى براعته الفذة في التوفيق بين الآراء وفي استخدام الاختلاف لتوحيد القلوب.

قراءة خلف الإمام

إننا نعلم بأن قراءة الفاتحة في الصلاة لازمة في حق الإمام والمأموم عند الشافعية، ولا يُلْزَمُ بها المأموم عند الحنفية. وفي المسألة اختلاف ظاهر إلاّ أن الأستاذ النورسي يربط الموضوع بتعدد الحق، ويبيّن أن الرأيين على الحق، بل هما ضمن ذات الحكمة وعينها. قال بديع الزمان النورسي:

> نجد أن أكثرية الذين يتبعون الإمام الشافعي رضي الله عنه هم أقرب من الأحناف إلى البداوة وحياة الريف، تلك الحياة القاصرة عن حياة اجتماعية توحد الجماعة. فيرغب كلّ فرد في بث ما يجده في نفسه إلى قاضي الحاجات بكل اطمئنان وحضور قلب، ويطلب حاجته الخاصة بنفسه ويلتجئ إليه، فيقرأ سورة الفاتحة بنفسه رغم أنه تابع للإمام. وهذا هو عين الحق، وحكمة محضة في الوقت نفسه. أما الذين يتبعون الإمام الأعظم "أبو حنيفة النعمان" رضي الله عنه فهم بأكثريتهم المطلقة أقرب إلى الحضارة وحياة المدن المؤهلة لحياة اجتماعية، وذلك بحكم التزام أغلب الحكومات الإسلامية لهذا المذهب. فصارت الجماعة الواحدة في الصلاة كأنها فرد واحد، وأصبح الفرد الواحد يتكلّم باسم الجميع، وحيث أن الجميع يصدقونه ويرتبطون به قلباً، فإنّ قوله يكون في حكم قول الجميع، فعدم قراءة الفرد وراء الإمام بـ "الفاتحة" هو عين الحق وذات الحكمة. (النورسي، ٢٠١١ أ: ٥٦١)

انظر كيف استخدم الاختلاف الفقهي في توحيد القلوب، فمن اتبع المذهب الشافعي عندما يطلع على رأي الحنفية في القراءة خلف الإمام من منظور النورسي المذكور آنفا يقبلها بكلّ قلبه وبكمال اطمئنان وثقة. وهكذا المتمذهب بالحنفية، فصار التعرّف على الرأي الآخر وفق هذه الرؤية أمراً جوهرياً، يمكن من خلاله توحيد القلوب مع الاعتراف بالحق في اختلاف الآراء.

الاختتام

وفي هذا المقال القصير إننا قد عرضنا باختصار الأوضاع الدينية لجمهورية بنغلاديش وخاصة حالة اختلاف علمائها مع ما لها من إيجابيات وسلبيات ثم قدّمنا أفكار الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي التي عالج فيها اختلاف العلماء. ونحن نرى بأن أفكاره تجاوزت حدود الزمان والمكان فهي صالحة للتطبيق في هذا العصر المعقد كما نرى أن اختلافات علماء بنغلاديش يمكن معالجتها على أساس المبادئ التي خلفها الأستاذ النورسي. ولتحقيق هذا الهدف نحن نتوقع أنه ستتم محاولات لترجمة مؤلفات بديع الزمان النورسي إلى اللغة البنغالية.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. بن محسن، مظفر (٢٠١٣). جال حديثر كوبولي رسوالله ار صلاة (صلاة الرسول بقبضة الأحاديث الضعيفة والموضوعة). داكا: السيرة بركاشوني.

٣. عبد المتين (٢٠١٥). دليل شوهو نمازر مسائل (مسائل الصلاة مع الأدلة). داكا: مكتبة الأزهر.

٤. النورسي (ترجمة: إحسان قاسم الصالحي)، بديع الزمان سعيد (٢٠١١ أ). الكلمات. القاهرة: شركة سوزلر للنشر.

٥. النورسي (ترجمة: إحسان قاسم الصالحي)، بديع الزمان سعيد (٢٠١١ ب). المكتوبات. القاهرة: شركة سوزلر للنشر.

٦. النورسي (ترجمة: إحسان قاسم الصالحي)، بديع الزمان سعيد (٢٠١١ ج). صقيل الإسلام. القاهرة: شركة سوزلر للنشر.

٧. Ali, Muhammad Mohar, (1985), History of the Muslims of Bengal, Riyadh: Imam Muhammad Ibn Sa'ud Islamic University, v. 1A.

٨. Chowdhury, Amirul Islam (Editor), (2012). *Banglapedia National Encyclopedia of Bangladesh* (online edition), Dhaka: Asiatic Society of Bangladesh.